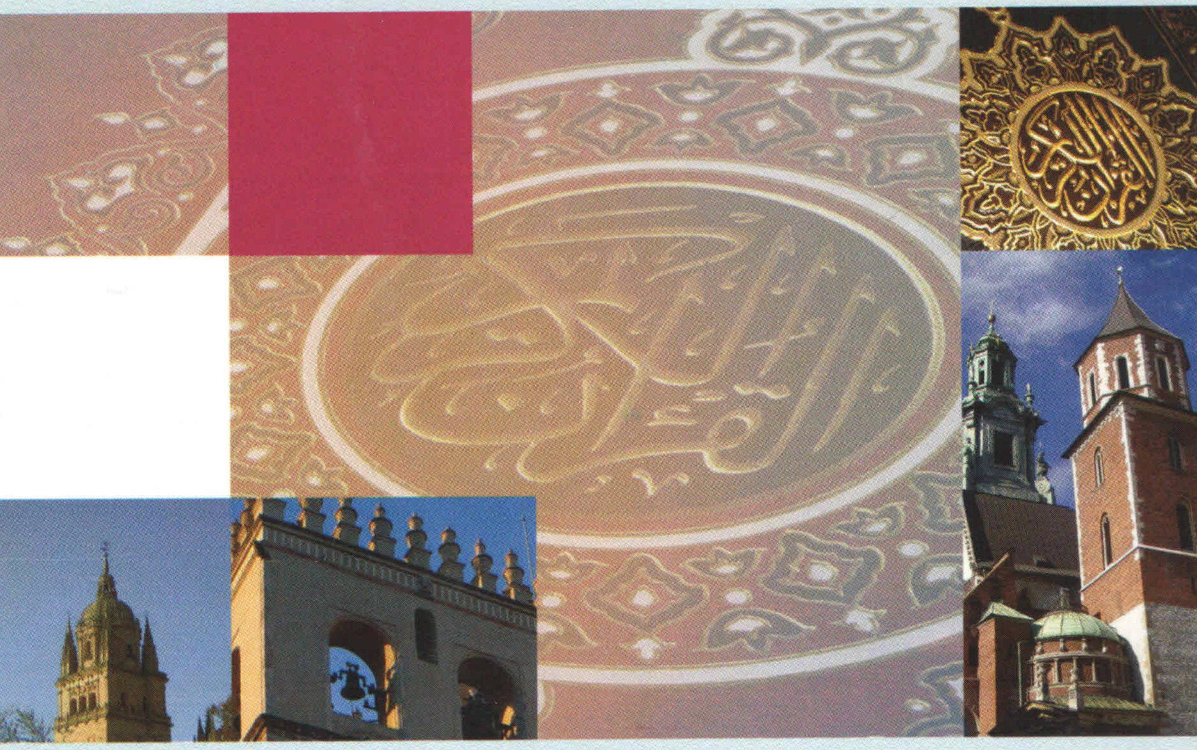
١٢٣
البيان
مركز البحوث و الدراسات

يا أهل الكتاب

تعالوا إلى كلمة سواء

استلهام لنداءات القرآن لأهل الكتاب



تاليف
د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

يا أهل الكتاب!

تعالوا إلى كلمة سواء

استلهام لنداءات القرآن لأهل الكتاب

تأليف

د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

ح مجلة البيان، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاضي، أحمد عبد الرحمن

يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء: استلهام لنداءات القرآن الكريم لأهل الكتاب. / أحمد عبد الرحمن القاضي - الرياض، ١٤٣١هـ.

ص ٨١؛ ١٦,٥×٢٢سم

ردمك: ٣ - ٩ - ٩٠١٤٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الإسلام والعنصرية أ. العنوان

ديوي ٢١٤,٢٧ ١٤٣١/٧٤٧٣

رقم الإيداع: ١٤٣١/٧٤٧٣

ردمك: ٣ - ٩ - ٩٠١٤٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أهل الكتاب! (١)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فهذا نداءٌ مخلص إلى كل من آمن بالله خالقِ الأرضِ والسماواتِ، وإلى كلٍّ من آمن بأنبيائه السابقين: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، وإلى كل من آمن بما أنزل الله من كتاب (التوراة، والإنجيل، والقرآن)، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم.

نتوجه إليكم معشر (أهل الكتاب)، أفراداً وجماعات، بهذا النداء المخلص، البريء من كل غرض دنيوي، ومن كل مشاحنة لفظية، قائلين لكم: (تعالوا!). هكذا أمرنا ربنا أن نخاطبكم:

أولاً: بوصفكم (أهل الكتاب)؛ فلستم كسائر الأمم من الوثنيين ﴿الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، بل أنتم ورثة الكتابين: (التوراة) و(الإنجيل).

ثانياً: أن نخاطبكم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا نجادلكم إلا بالتي هي أحسن.

فبيننا وبينكم رحمٌ مشترك، وقضايا متفق عليها. أمرنا ربنا أن نعلنها، ونجهر بها، لتكون قاعدة للانطلاق فيما نختلف فيه. قال ربنا: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ

إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ولأجل ذلك شعر أسلافنا من المؤمنين الأوائل بتعاطفٍ مع أسلافكم، حين اقتتل الروم النصارى، مع الفرس الوثنيين، فبشَّرهم الله بالفرح بالنصر على عدوهم المشترك، فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ١ - ٥].

ولأجل ذلك أيضاً ميزكم الله عن سائر الطوائف والملل، وخصكم بأحكام لا يشارككم فيها أحد عند أهل الإسلام، منها: حِلُّ ذبائحكم، وحِلُّ المحصنات من نسائكم، فقال: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥ ﴾ [المائدة: ٥].

وقد ورد ذكركم في كتابنا بوصفكم (أهل الكتاب) إحدى وثلاثين مرة، ومثل هذا العدد بلفظ: (أوتوا الكتاب)، أو: (آتيناهم الكتاب) ونحوه، وفي أربعة مواضع بلفظ الميراث، مثل: (أُورِثُوا الكتاب). فهذه ستة وستون موضعاً! فضلاً عن عشرات المواضع التي يعبِّر فيها عنكم بلفظ: (بني إسرائيل)، أو عن بعضكم بلفظ: (اليهود)، أو (النصارى).

إن ذَلِكم يدل – بلا ريب – على العناية التامة التي أَوْلاها ديننا إياكم، وألزمنا – نحن المسلمين – أن نحذو حذوها، وننسج على منوالها.

ومن هذا المنطلق الإيماني، الإنساني، المخلص، المتجرد من كل عصبية أو هوى، نتقدم إليكم – معشر أهل الكتاب – بهذه السلسلة من المقالات المستوحاة من نداءات القرآن إياكم، آملين أن تقرؤوها بتأمُّل، ووعي، واهتمام، علَّنا نصل وإياكم إلى (كلمةٍ سواءٍ)، مبنيَّةٍ على الوضوح، والشفافية، والمناقشة العلمية الصحيحة، بعيدةٍ عن أجواء التشنج والاستفزاز. والله وحدَه الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

يا أهل الكتاب! (٢)

تعالوا إلى كلمة سواء

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

حين بعث الله محمداً ﷺ بالإسلام في القرن السادس من الميلاد، كانت البشرية بأجمعها في أمرٍ مريج، ووَضْعٍ مضطرب. ولم يسلم من هذا الاضطراب والاختلاف اليهود والنصارى، بل على العكس، نالهم منه القسط الوافر الذي أفضى إلى سفك الدماء، وقتل الأبرياء، واستحكام العداوة والبغضاء بين مختلف الفرقاء؛ فوقع صراع مرير بين الموحدين أتباع (آريوس)، والمثلثين أتباع (بولس)، ثم أعقبه صراعٌ أشدُّ حول ماهية المسيح - عليه السلام - بين آباء كنيسة الإسكندرية، القائلين بـ (الطبيعة الواحدة) (monophysita)، وآباء كنيسة أنطاكية القائلين بـ (الطبيعة المزدوجة)، وهم الذين عُرِفُوا بالملكانية الأرثوذكسية (orthodoxa)، ثم أعقبه صراع ثالث حول (الأيقونات).

وإلى جانب هذه الصراعات داخل المنتمين إلى الأنبياء، كانت البشرية تعج بأنواع الوثنيات، والشركيات، والخرافات: من مجوسيةٍ، وهندوسيةٍ، وبوذيةٍ... وغيرها، تمخضت عن نتائج وَخِيمَة على الإنسانية، وفوضى فكرية عارمة، لم يكن ليكشفها إلا بعثة نبي من عند الله، ببيِّنة تزيل الإشكال وترفع الخلاف، فكان محمد ﷺ.

لقد بُعث محمدٌ ﷺ في جزيرة العرب بين قوم وثنيين، مشركين، فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده. وكان في الجزيرة أيضاً جيوبٌ يهودية ونصرانية، فاتصل بهم ودعاهم إلى دين أبيهم إبراهيم، وكتب إلى الزعامات النصرانية في العالم آنذاك، مثل هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) إمبراطور الروم، والمقوقس زعيم القبط، والنجاشي ملك الحبشة، يدعوهم ومَنْ تحت سلطتهم، إلى (كلمة سواء)، واتفاق مشترك، يتضمن ثلاث قضايا أساسية متلازمة:

الأولى: توحيد الله بالعبادة.

الثانية: نبذ الشرك بجميع صوره.

الثالثة: ترك الغلو، وتقديس الأشخاص.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وبدا هذا العرض الكريم، والدعوة النقية، مشروعاً لجمع كلمة المؤمنين من أتباع الأنبياء، فضلاً عن الوثنيين المشركين، يتسم بالحق، والوضوح، والبساطة، والمتانة، في آن واحد، ويمثل مخرجاً حقيقياً من اللغط الدائر، والجدل العقيم، وأساساً متيناً لاستئناف السير على منهج الله، ودرب الأنبياء، خلف خاتمهم، وحفيد أبيهم إبراهيم، عند بيت الله الذي ابتناه إبراهيم، عليه السلام.

وجاء النداء القرآني مغرياً لأسلافكم، معشر أهل الكتاب، واضعاً إياهم أمام

مسؤولية تاريخية حاسمة، قائلاً لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾.
[المائدة: ١٥]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وفعلاً استجابت أعداد ضخمة من أسلافكم – لا سيما النصارى – لنداء الله، وفرحوا فرحاً عظيماً بالوحي الجديد من السماء، ولم تمنعهم عصبية أو كبرياء من قبوله. وتحولت شعوب كبيرة في بلاد الشام، والعراق، ومصر، والمغرب، وتركيا، طواعيةً، وبمحض إرادتهم وقناعتهم إلى الإسلام. ولم تزل هذه العملية تتكرر في مواقع كثيرة، وأزمنة متتابعة إلى يومنا هذا، حتى بات الإسلام يمثل أكثر الأديان نمواً في العالم؛ وما ذاك إلا لأنه دين الله الحق، الموافق للفطرة والعقل والعلم، كما أنه الوارث الحقيقي لما في الرسالات السماوية السابقة، المصدِّق لما فيها من حق، المصفِّي لها من البدع والإضافات البشرية الخاطئة، المكمِّل لما تحتاجه البشرية من أحكام وتشريعات.

يا أهل الكتاب! (٣)

دين الله واحد، وأنبياؤه إخوة

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإن دين الله واحد، هو الإيمان بالله، وعبادته وحدَه دون ما سواه. وإنَّ دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، وهي عبادة الله وحدَه، دون ما سواه؛ لأن مُرْسلَهم واحد. ونحن معشرَ المسلمين لا نفرق بين أنبياء الله، بل نؤمن بهم جميعاً، ونكرمهم جميعاً؛ فأنبياء الله: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وغيرهم - صلوات الله عليهم وسلامه - عقيدتهم واحدة، وإن اختلفت شرائعهم التطبيقية، فهم كأبناء لعلات؛ أبوهم واحد، وأمهاتهم متعددات؛ فإيمانهم واحد، وأحكام شرائعهم مختلفة تبعاً لاختلاف عصورهم.

وقد أدرك المؤمنون من أسلافكم هذه الوحدة الجامعة بين ما جاء به محمد، والأنبياء قبله، واكتشفوا ذلك بسهولة بالغة، وآمنوا أن الرسالات السماوية عبارة عن حلقات متصلة، يمسك بعضها ببعض؛ لتكون بمجموعها سلسلة متينة تعتصم بها البشرية من التيه والضلال، وصوَّر القرآن هذا الوعي العميق، والإدراك الجيد، من قِبَل أسلافكم أدقَّ تصوير، فقال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥١ - ٥٥].

لقد استحق هؤلاء الأماجد هذا الثواب الرباني بمضاعفة الأجر مرتين؛ لأنهم آمنوا مرتين: آمنوا بنبيِّهم، ثم آمنوا بمحمد ﷺ. وبعض الناس يحول بينه وبين قبول الحق عقباتٌ مصطنعةٌ من الجهل، أو قسوة القلب، أو الكبر. ومَنْ سَلِم من هذه الآفات الثلاث صار مهيئاً لقبول البشرى، وحلول النعمة، كما وصف الله بعض السابقين منكم إلى قبول الإسلام وصفاً رائعاً، فقال - سبحانه -: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٦].

١ - فقد تخلَّصوا من عقدة (الجهل)؛ لأنهم (قسيسين)، وهم العلماء.

٢ - وتخلَّصوا من (قسوة القلب)؛ لأنهم (رهبان)، وهم العُبَّاد.

٣ - وتخلَّصوا من (الكبر)؛ لأنهم (لا يستكبرون).

وبإزاء هذه الصفات الكريمة يعاني كثير من الناس اليوم في الدول الغربية من:

١ - الجهل المطبق بحقيقة الإسلام، والخضوع لتأثير الآلة الإعلامية غير المنصفة.

٢ - الإغـراق في المادية التي تحجب القلب عن ممارسة وظيفته الطبيعية الإيمانية.

٣ - الازدراء للآخرين، وعدم التواضع، والإصغاء إلى ما ليس بمألوف.

إننا ندعو كل إنسان يعيش على سطح الأرض، وندعوكم معشر أهل الكتاب خاصة، أن تتفكروا وتتأمَّلوا، بتجرد وإخلاص فيما جاء به محمد ﷺ، وستجدون فيه ما تتمنون من الحق والصواب، والقناعة العقلية، والراحة النفسية، ولا بد من خوض هذه التجربة؛ لأنها مصيرية، تتوقف عليها السعادة الدنيوية والأخروية.

يا أهل الكتاب! (٤)

حقيقة التوحيد

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإنَّ أعظم قضية يجب التوقف عندها، وفهمها فهماً عميقاً، هي قضية (الألوهية)! فنحن وإياكم (نؤمن بإله واحد، قادر على كل شيء، خالق السماء والأرض، وكل ما يُرَى وما لا يرى)، وفي كتابنا: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، إلا إن بعض المتسللين إلى دين المسيح - عليه السلام - أفسد هذا الصفاء، وعكر هذا النقاء، بلغةٍ فلسفية أخرجت أتباع المسيح - عليه السلام - من التوحيد الخالص إلى ما يشبه الوثنية، ومن البساطة والوضوح، إلى التعقيد والجنوح.

فـ (الله) - تعالى - واحدٌ في ذاته؛ لا قسيم له، ولا والد له، ولا ولد، ولا زوجة. وهو واحد في ربوبيته؛ لا خالق غيره، ولا مالك سواه، ولا مدبر للكون إلا إياه. وهو واحد في صفاته؛ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ليس كمثله شيء. وبناءً على وحدانيته المطلقة في الخلق، والملك، والتدبير، واتصافه بصفات الكمال، هو الواحد في الألوهية؛ لا يستحق العبادة أحدٌ سواه. وهذه قضية بدهية.

وقد شاب النصرانية، منذ وقتٍ مبُكر شوائب تتنافى مع هذا التوحيد الخالص، فافترقت إلى عشرات الفرق المنحرفة عن الإيمان الذي جاء به المسيح، ومنها:

١ - المارقيونيون: المنسوبون إلى (مارقيون النبطي) الذي قال بوجود إلهين!

٢ - البربرانيون: القائلون بألوهية المسيح وأمه!

٣ - الإليانيون: القائلون بألوهية المسيح، وأنه ابن الله!

٤ - النيقاويون: وهم المؤمنون بالإيمان النيقاوي، الذي صار الاتجاه الرسمي السائد لعموم الكنائس النصرانية الباقية؛ الكاثوليك، والبروتستانت، والأرثوذكس. ويعتمد هذا الاتجاه عقيدة (التثليث) (Trinitarian) الغامضة التي تحاول أن تفرض على العقل قضية ممتنعة: (تثليث في وحدة، ووحدة في تثليث)! ويدعو إلى الإيمان بـ (ثالوث أقدس) مكون من ثلاثة أقانيم (Hypostasis): (الآب) وهو الله، و(الابن) وهو الله المتمثل بالمسيح، و(الروح القدس) وهو الرب المحيي! فهم يثبتون ثلاثة آلهة منفصلة، ثم يلحون في اعتبار ذلك توحيداً!

وهذه المقالات جميعاً في شأن الألوهية لا يمكن أن تكون محل قبول من العقول السليمة والفطر المستقيمة، ولا يعفيهم في حل هذه المعضلة ادِّعاء أنها سرٌّ رباني. وقد وعظ القرآن جميع هؤلاء الفرقاء، ودعاهم إلى كلمةٍ سواء، موافقة لما جاء به جميع الأنبياء، من التوحيد الخالص، ونبذ الشرك بجميع صوره اللفظية والعملية، فقال عن القائلين بألوهية المسيح: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال عن أهل التثليث: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٣ – ٧٧].

فالمسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – كسائر إخوانه من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله وحدَه، ويحذر من الشرك، وهو بشركسائر البشر؛ يمارس حياة طبيعية، هو وأمه العذراء البتول، ولا يملك شيئاً من خصائص الألوهية، أو الربوبية؛ فأين هذا الاعتقاد الواضح البسيط، من العقائد الغامضة المعقدة؟

يا أهل الكتاب! (٥)

الإيمان بالله

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإن أعظم ما يعتز به المنتسبون إلى أنبياء الله، ويتميزون به على أتباع الملل الوثنية، هو الإيمان بالله. والإيمان الحقيقي بالله لا بد أن يتضمن أربع قضايا أساسية:

الأولى: الإيمان بوجود الله: فالله - تعالى - هو الإله الحق، وهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء. إن الله - تعالى - ليس (خرافة)؛ كما يقول الملحدون الماديون (الشيوعيون)، وليس مجرد (فكرة)؛ كما يقول (الفلاسفة)، وليس قضية مشكوكاً فيها؛ كما يقول (اللاأدريون). بل هو حق لا شك فيه، وإن كنا لا نراه.

الثانية: الإيمان بأنه الرب الخالق، المالك، المدبر: فكل ما في الكون فالله خالقه، لا خالق سواه. وكل ما في الكون فالله مالكه، لا مالك سواه. وكل ما في الكون من حوادث، فالله مجريها ومقدِّرها. وهذا لا يعني سلب الآخرين قدراتهم، وممتلكاتهم، وتصرفاتهم... كلا، بل كلٌّ ما يملكون، ويفعلون فهو ضمن الدائرة الكبرى التي يملكها الله، ويأذن بها. وليس له منازع في ذلك، ولا مشارك، ولا معاون.

الثالثة: الإيمان بأنه المستحق للعبادة وحدَه دون ما سواه: لأنه الخالق، المالك، المدبر، لا يجوز عقلاً أن تبذل العبادة لمن لا يخلق، ولا يملك، ولا يدبِّر، بل يجب أن يتوجه الإنسان بجميع عباداته (القلبية، والقولية، والعملية) للإله الذي أوجده، ورزقه، ويسَّر أموره. ولا يجوز أيضاً، أن يقسم عباداته بين الإله الحق، وآلهة أخرى مزيفة، صنعها خيال فاسد، بل يجب أن يوحِّد الله بالعبادة، ويجمع همَّه على خالقه.

الرابعة: الإيمان بأن الله له صفات الكمال، والجمال، والجلال: وأنه منزَّه عن صفات النقص والعيب ومماثلة المخلوقات؛ فهو إلهٌ حي، سميع، بصير، عليم، حكيم، قدير، كريم، عظيم، عفو، غفور، متكلم، فعال لما يريد. وصفاته هذه ليست كصفات البشر، فليس كمثله شيء، بل له المثل الأعلى. كما أنه منزَّه عن أضداد هذه الصفات مثل: الموت، والصمم، والعمى، والجهل، والسفه، والعجز، والبخل، والهوان، والحقد، والخرس، والجمود... وغير ذلك من صفات النقص والعيب.

وحين يجمع الإنسان في قلبه الإيمان بالإله من خلال هذه الأمور الأربعة، يحقق الإيمان الصحيح، والتوحيد الخالص، ويتميز عن سائر الوثنيين، والضالين، ويتبين له خطأ من أخلَّ بالإيمان، ولوثَّ التوحيد النقي بالعقائد الباطلة، مثل:

١ - اعتقاد أن لله ابناً: لأن البنوة تنافي الوحدانية؛ لأن الابن دوماً من جنس أبيه، ولأن الله غني لا يحتاج إلى ابن. فلا يستقيم مع الإيمان الصحيح أن يعتقد

أن المسيح – عليه السلام – ابن لله، ولا أن عزيراً ابن لله.

٢ – اعتقاد أن لله زوجة: لأن الزوجة تكون من جنس زوجها دوماً، وذلك منافٍ للوحدانية، كما أن الله غني عن الزوجة ولا يحتاج إلى الاستيلاد.

٣ – اعتقاد أن الإله مكوَّن من ثلاثة أقانيم! (الآب، والابن، وروح القدس): فهذا ينافي التوحيد بداهةً، ويشابه مقالات الوثنيين؛ كالهندوس القائلين بإله مثلَّث (براهما، وفيشنو، وسيفا)، وإله البابليين المكون من (إله السماء، والأرض والبحر، وإله الشمس والقمر، وإله العدل)، وإله الفينيقيين المكون من (إيل، وشموز، وعولم)، وإله المصريين المكون من (أوزيرس، وأزيس، وحورس)؛ فأي فرق بين الثالوث النصراني، وهذه الوثنيات؟

يا أهل الكتاب! حكِّموا عقولكم، ولا تقولوا: إن الله ثالث ثلاثة، ولا تقولوا: المسيح ابن الله، ولا تقولوا: المسيح هو الله، ولا تقولوا على الله إلا الحق الذي جاء به أنبياء الله ورسله، ونزهوه عن الولد والشريك؛ لتكونوا مؤمنين بالله حقاً وصدقاً.

يا أهل الكتاب! (٦)

الغلو

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإن من أخطر المزالق التي وقع فيها البشر (الغلو). والغلو بأبسط تعريفاته يعني: تجاوز الحد. وهذا التجاوز تدفع إليه عاطفة جامحة، أو فهم خاطئ، فيؤدي إلى نتائج سيئة. وتشتد الخطورة حين يتعلق بالدين والاعتقاد.

إن الغلو في تعظيم الذوات، ورَفْعِها فوق منزلتها الطبيعية، ومنحها صفاتٍ لا تليق بها، باب واسع للوقوع في الكفر ومنازعة الإلهِ الحقِّ ربوبيَّته، أو ألوهيَّته.

ومن وقائع الغلو المبكرة في تاريخ البشرية، ما وقع لقوم نوح - عليه السلام - حين أرادوا تخليد ذكرى رجال صالحين من أسلافهم، فنحتوا لهم تماثيل، ونصبوها في الأماكن التي كانوا يقيمون فيها، رجاء أن يكون ذلك حافزاً على الاقتداء بهم، وتجديد قيمهم. لكن الأمر وقع على الضد؛ فقد زين لهم الشيطان أن يعبدوهم من دون الله، وأن يعتقدوا فيهم قوىً خارقة، واستقلالاً بالنفع والضر، فيطلبون منهم ذلك، ويتضرعون إليهم، وهذا هو الغلو.

وتكرر المشهد في قوم إبراهيم - عليه السلام - حين عظموا النجوم، والأجرام السماوية، وابتنوا لها الهياكل، وزعموا أنها تؤثر في مجريات الحوادث الأرضية،

فعبدوها من دون الله، وهذا ضرب من الغلو أيضاً.

والعجب أن يقع الغلو في أمة ذات رسالة سماوية، وهم بنو إسرائيل، الذين يقرؤون في الوصايا العشر، في سفر التثنية: (أنا الله ربكم واحد، لا يكن لكم معبود من دوني)، ثم يستزلهم الشيطان فيعبدون سواه. جاء في سفر القضاة: (ففعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب، وعبدوا البعل، وتركوا الرب، إله آبائهم، الذي أخرجهم من أرض مصر، وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب التي حولهم، وسجدوا لها، وتركوا الرب، وعبدوا البعل والعشتاروت) [٢/ ١١ - ١٤].

وأعجب من ذلك أن يقع الغلو في أمة عيسى - عليه السلام - الذي جاء ليرد خراف بني إسرائيل الضالة إلى جادة التوحيد، ويقول لهم، كما أخبر القرآن: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أليس من الغلو الفاضح الذي يأباه المسيح - عليه السلام - أن يوصف بالألوهية؟ إذ نجد في مستهل إنجيل يوحنا ما يلي: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كانت لدى الله، والكلمة هو الله) يوحنا [١/ ١]، ويخاطبه توما قائلاً: (ربي وإلهي! فقال له يسوع: ألأنك رأيتني آمنت؟) [٢٠/ ٢٨]، سبحان الله!

أليس من الغلو أن يوصف المسيح - عليه السلام - بأنه (ابن الله)؟ جاء في إنجيل متّى: (فقال لهم: من أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب سمعان بطرس: أنت المسيح ابن الله الحي، فأجابه المسيح: طوبى لك يا ابن سمعان بن يونا؛ فليس اللحم والدم كشفا

لك هذا، بل أبي الذي في السماوات) [١٦/ ١٥ - ١٧]، وفي موضع آخر: (وإذا صوت من السماوات يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت) [٣/ ١٧].

أليس من الغلو الذي تأباه العقول السليمة، والفطر المستقيمة، أن يُعَدَّ المسيح جزءاً من الإله، كما في عقيدة (الثالوث المقدس)؟

إن هذا الغلو حمل كاتب إنجيل يوحنا على أن يخلع على المسيح صفات الربوبية؛ كالإحياء، ويتجاوز ذلك ليسلب الرب الدينونة، ويمنحها حصراً للمسيح، فيقول: (فكما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم، فكذلك الابن يحيي من يشاء؛ لأن الآب لا يدين أحداً، بل جعل القضاء كله للابن) [٥/ ٢٢، ٢١].

لقد آن لكل عاقل أن ينأى بنفسه عن الغلو بجميع صوره، وأن يبصر الأشياء بصورتها الطبيعية، ويُفرِّق بشكل حاسم بين مقام الألوهية، ومقام العبودية، فإن الشرك ظلم عظيم، وإساءة للمخلوق، وكفر بالخالق.

يا أهل الكتاب! (٧)

حقيقة عيسى (عليه السلام) (١)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فقد كان عيسى بن مريم - عليه السلام - آية عظيمة من آيات الله؛ آية في خَلْقِه، وآية في ولادته، وآية فيما أجرى الله - تعالى - على يديه من آيات أخرى كثيرة.

كان آيةً باهرة في خَلْقِه، حين خلقه الله - تعالى - من أمٍ بلا أب، لتتم به جميع صور الخلق الإلهي لبني الإنسان؛ فإن الله - تعالى - خلق سائر الناس من أبٍ وأم، وخلق آدم - عليه السلام - بلا أبٍ ولا أم، وخلق حواء - عليها السلام - من أبٍ بلا أم، وخلق عيسى - عليه السلام - من أمٍ بلا أب.

لقد أرسل الله - تعالى - أشرف ملائكته (جبريل) إلى مريم بنت عمران، العذراء، الطاهرة، البتول، وهي في خلوتها، فنفخ فيها نفخةً علويةً كريمةً من روح الله، استقرت في رحمها، وخلق منها ابنها عيسى على غير مثالٍ سابق، سوى أبيه الأول آدم! فإن كلاً منهما قال الله له: كن! فكان.

وكان الأمر عصيباً على فتاةٍ عفيفة، شريفةٍ، طاهرة، وُلِدَت من أبوين صالحين، وترعرعت في أكناف بيت المقدس، في عبادة ومناجاة لله، وإعراض

عن لذات الدنيا، ولكن ذلك كان ضرورياً لإحداث صدمة قوية لبني إسرائيل، الذين صارت قلوبهم قاسيةً، وأخلاقهم جافيةً، وإيمانهم صورياً؛ فحين حلَّت اللحظة الحاسمة، وأقبلت العذراء تحمل وليدها الذي لا أبَ له، انهالوا عليها بالأسئلة الحادَّة، المبطَّنة بالظنون السيئة، والتهم الفاجرة، فلم تُجِبْهم واكتفت بالإشارة إلى الوليد، لتقع الآية الباهرة الثانية؛ فإذا هو ينطق بلسان فصيح، معرفاً بنفسه، بسبع عبارات، قائلاً:

١ - ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ولست الله، ولا ابن الله، ولا جزءاً من الله.

٢ - ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ وهو الإنجيل، الذي جعله الله هدى وموعظة لبني إسرائيل.

٣ - ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فهو نبي من أعظم أنبياء الله، وبشر سوي، كسائر البشر.

٤ - ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فهو مبارك أينما حلَّ، يعظ، ويعلِّم، ويمسح على المريض فيُشفَى، ويبرئ الأكمه، والأبرص، ويحيي الموتى. وكل ذلك بإذن الله وتأييده.

٥ - ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فهو قد أتى بشريعة عملية، لا مجرد معلومات نظرية؛ فالمؤمن لا يكون بمجرد إيمان نظري، بل لا بد من سلوك عملي، يدل على صدق هذا الإيمان.

٦ - ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾؛ فقد بُعثَ بقيمٍ خُلُقيَّة رفيعة، ترعى الحقوق، وتحترم الآخرين، وتأبى العقوق والعدوان.

٧ - ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1]؛ إذاً حياته - عليه السلام - سلامٌ في سلام، كما أنه يدعو إلى السلام.

هكذا جرى الإعلان الكبير، الواضح، عن شخصية هذا النبي الكريم، بهذه الصورة المدهشة، التي تخضع لها القلوب القاسية، والعقول العنيدة، فتضطرها إلى الإذعان، وتفرح بها القلوب اللينة، والفطر السوية، فتجد فيها الفرج والمخرج من عبث العابثين، وتسلُّط الكتبة والفريسيين، الذين تدَّرعوا بالدين، للوصول إلى مطامعهم الشخصية، فأفسدوا الدنيا والدين.

---

(١) الآيات من سورة مريم: من الآية (٣٠ - ٣٣)

يا أهل الكتاب! (٨)

حقيقة عيسى (عليه السلام) (٢)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فقد نشأ عيسى - عليه السلام - بين اليهود، وعلَّمه الله التوراة، وآتاه الإنجيل؛ فكان نبياً رسولاً. وناظَرَ الكَتَبة والفريسيين، ووثَّق الشريعة التي جاء بها موسى - عليه السلام - قَبْلَه، وخفف عن بني إسرائيل بعض المحرمات التي كانت عليهم، وخالط الناس وتقلَّب في مدنهم وقراهم، ودعاهم وعلَّمهم ووعظهم، فأحبوه واتبعوه. وأجرى الله على يديه آيات باهرات، منها:

١ - كان يصور من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله.

٢ - كان يبرئ الأكمه والأبرص؛ فيمسح عليهم، فيعودون أسوياء بإذن الله.

٣ - كان يقف على الميت، فيناديه، فيقوم حياً بإذن الله.

٤ - كان يخبر الناس بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم، بإذن الله.

وقد كانت هذه الآيات المدهشة ضروريةً لإقناع اليهود الذين قست قلوبهم، وطغى عليها حب الدنيا من جهة، والخوف من الحاكم الروماني من جهة أخرى، بأنه رسول من عند الله؛ إلا أن الناس انقسموا حيال هذا النبي الكريم، إلى ثلاثة أقسام:

١ - قسم كذبوه، ورفضوا الإيمان به، واستكبروا عن اتباعه، وأنكروا الآيات الباهرات التي صاحبت ولادته ورسالته، بل وصموه بألقاب السوء، ورموا أمَّه العذراء البتول بالبهتان والفجور، وسعوا في قتله، والوشاية به لدى الحاكم الروماني (بيلاطس) زاعمين أنه يسعى لإقامة مملكة داود، على أنقاض الدولة الرومانية. وهؤلاء هم كفرة اليهود.

٢ - قسم بُهروا بما أجرى الله على يديه من الآيات، وغَلَوا فيه غلوّاً عظيماً؛ فاعتقدوا أنه الله، أو أن فيه جزءاً لاهوتياً وجزءاً ناسوتياً، ثم صاغوا هذا الاعتقاد الفاسد بصيغة فلسفية معقدة، في أوقات لاحقة، بنظرية (التثليث)؛ وهؤلاء هم ضُلاَّلُ النصارى.

٣ - وقسم آمنوا به وصدقوه، واعتقدوا أنه رسول نبي، وبشر سوي، مؤيَّد من عند الله بالآيات التي على مثلها يؤمن البشر. وأن الله أوحى إليه، كما أوحى إلى سائر أنبيائه؛ فليس فيه شيءٌ من خصائص الألوهية أو الربوبية، بل هو عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول الطاهرة. وهؤلاء هم الحواريون المؤمنون، والتلاميذ الصادقون.

لقد كان عيسى - عليه السلام - آية من آيات الله، وكان كتابه (الإنجيل) هدى ونوراً وموعظةً للناس، وكانت رسالته حَلْقَةَ وَصْلٍ بين رسالات الله، تعالى؛ فهو:

أولاً: مصدقٌ لما بين يديه من التوراة، ومؤكد للناموس الذي جاء به أخوه موسى - عليه السلام - مع ما بعثه الله به من التخفيف والرحمة.

وثانياً: مبشرٌ برسول يأتي من بعده، اسمه (أحمد)، يختم الله به الرسالات، ويجمع عليه الناس؛ ليكونوا إخواناً في دين الله الواحد، لا تفرقهم عصبيات، ولا قوميات، ولا لغات، ولا أوطان. فرب الناس واحد، ودينه واحد، ودعوة رسله واحدة، فينبغي أن يكونوا على قلب إنسان واحد.

يأهل الكتاب (٩)

حقيقة مريم (عليها السلام)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فقد كانت مريم بنة عمران - عليها السلام - من النساء الكاملات، والعابدات القانتات. وُلِدَت في بيت علم ودين من بيوت بني إسرائيل. وقد نذرتها أمها مذْ كانت حملاً في بطنها، لخدمة بيت المقدس، فنشأت نشأةً إيمانية، وتربَّت تربيةً راقية، وترعرعت في الطهر والعفاف والعبادة والتبتل، وأجرى الله لها العديد من الكرامات.

وكانت أعظم كرامة أكرمها الله بها أن بعث إليها الروح القدس، في أثناء خلوتها، ففزعت منه؛ لِمَا جُبِلَت عليه من الحياء الفطري، والحرج الديني، لكنه طمأنها أنه رسول من عند الله لِيَهَب لها غلاماً زكياً، فنفخ فيها نفخة قدسية، فاستقرت في رحمها، وخلق الله منها عيسى، عليه السلام.

لقد كانت مريم - عليها السلام -:

١ - صِدِّيقةً: بلغت الغاية في التصديق بكلمات ربها وكتبه، والثقة بموعوده.

٢ - عفيفةً: قد أحصنت فرجها، بريئة من كل ريبة.

٣ - إنساناً كسائر الناس، تأكل الطعام، قانتة، عابدة، بَتُولاً.

ولم تكن مريم - عليها السلام - أبداً:

١ - لا محل تهمة، كما بهتها كفرة اليهود، ووصموها بألقاب السوء.

٢ - ولا تتصف بشيءٍ من صفات الربوبية، كما زعمت بعض الفرق النصرانية، مثل (البربرانية) التي ظهرت في القرن الرابع الميلادي.

٣ - ولا إلهاً يستحق العبادة من دون الله، ويُتضَرَّع إليه بالدعاء، وتُطلَب منه الشفاعة عند الله، كما يفعل عامة النصارى اليوم. وهذا هو معنى اتخاذها وابنها إلهين من دون الله، كما جاء ذكره في القرآن الكريم، في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

إن لعيسى بن مريم وأمِّه منزلةً عظيمة في قلوب المسلمين، وهم يذكرونهما دوماً بأجمل الصفات وأزكى العبارات؛ دون أن يخرجهم ذلك إلى أي لونٍ من ألوان الغلو والشطط. إن المحبة الحقيقية لهذا النبي الكريم وأمِّه الصِّدِّيقة، أن نُنزِلَهما المنزلة التي أنزلهما الله إياها؛ فلا نغالي في وصفهما، ولا نخلع عليهما صفات الربوبية، أو نتوجه إليهما بأي نوع من أنواع العبادة، فنقع في الشرك الذي يمقتانه، كما لا نجفوهما وننال منهما، كما يفعل الكفار من اليهود.

ألا ما أجمل العدل والإنصاف والتوسط ؛ فإنه الموافق للعقل السليم ، والفطرة السوية ، والأخبار الإلهية الصحيحة . والله الهادي إلى طريق الحق .

يأهل الكتاب! (١٠)

نماذج مشرقة (١)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

يحفظ التاريخ الإسلامي المبكر موقفاً إيمانياً كريماً لرجلٍ من أهل الكتاب، ضرب مثلاً رائعاً في الصدق والتجرد، وترك أثراً حميداً مطمئناً في نفس نبي الله محمد ﷺ.

فقد روت كتب السُّنة[1] تتصاعد والسيرة النبوية، أن محمداً ﷺ لَمَّا جاءه المَلَك أَوَّل مرة في الغار الذي كان يتعبد فيه قبل بعثته، فزع فزعاً شديداً، وعاد أدراجه إلى زوجته خديجة - رضي الله عنها - التي طمأنته، وذكَّرته بمآثره السابقة، وأفعاله الإنسانية الجميلة. ولم تكتفِ بهذا، بل أخذته إلى ابن عمٍ لها، كان قد ترك الوثنية واعتنق النصرانية، ويحسن كتابة الإنجيل باللغة العبرانية، اسمه (ورقة بن نوفل). وكان قد شاخ، وذهب بصره. فلما قصَّ عليه النبي ﷺ ما رأى، أجاب ورقة على الفور، بثقة واستبشار: هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها شاباً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ متعجباً: أوَ مخرجيَّ هم؟ قال ورقة: نعم! لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً. إلا أنه مات، رضي الله عنه

---

(١) انظر البخاري، كتاب بدء الوحي: ١/ ٣.

ورحمه. ونقف وقفات تأمُّل عند هذه القصة:

أولاً: صِدْق ورقة وتجرده للحق: فلم يمنعه دينه السابق أن يرحب بالدين الجديد، بل رأى أنه امتداد له، وتجديد لدين الله في الأرض.

ثانياً: الشهادة الإيمانية من مؤمن أهل الكتاب للنبي الخاتم، واليقين الجازم بأن هذا المَلَك هو المَلَك ذاته الذي أتى الأنبياء قبل محمد، موسى وعيسى، وهو جبريل، عليه وعليهم صلوات الله وسلامه.

ثالثاً: الشجاعة الأدبية لهذا المؤمن الكتابي، والاستعداد التام للنصرة والتأييد، بالقول، والفعل، والتحسر على حصول النبوة الخاتمة، وقد تخطى سن الشباب والفتوة.

رابعاً: الإدراك الواعي لطبيعة الرسالات الإلهية، وما يترتب عليها من ابتلاءٍ وتضحيات وأذى، ينال أنبياء الله: ومن ذلك الطرد والنفي من الوطن. قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

لقد كان ورقة - رضي الله عنه ورحمه - مثالاً للمؤمن الحر المتجرد، الذي يبحث عن الحق ويفرح به وينصره ويشهد له، ولا يقع أسيراً لعادات وموروثات واعتبارات، تحول بينه وبين النجاة، والخلاص.

وكثير منكم - معشر أهل الكتاب - تراوده في لحظة من لحظات الصفاء

والإشراق فكرة اتباع الحق وقبول الإسلام؛ باعتباره الصورة الصحيحة، المنقحة، الكاملة لدين الله في الأرض، المصدِّقة للرسالات السابقة، المخلِّصة لها من الإضافات والشوائب، لكن يعترضه دون اتخاذ هذا القرار الشجاع، ركام من الأوهام والخلفيات المغلوطة، أو الاعتبارات الاجتماعية أو النفسية؛ فما أحرى الإنسان العاقل الحكيم أن يتأمل موقف هذا الشيخ الحكيم ورقة بن نوفل، ويمتطي صهوة الحق بشجاعة وثقة، ويتخطى الحواجز الوهمية؛ ليصل إلى بَرِّ الأمان، وسعادة الدنيا والآخرة.

يا أهل الكتاب! (١١)

نماذج مشرقة (٢)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

تعرَّض المؤمنون الأوائل من السابقين إلى الإسلام في مكة لاضطهاد شديدٍ من قِبَل المشركين الوثنيين. وشقَّ ذلك على النبي الكريم، محمد ﷺ، فأشار على المستضعفين منهم أن يهاجروا إلى بلاد الحبشة قائلاً: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحدٌ عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

وفعلاً خرج بعض المؤمنين والمؤمنات في دفعات متوالية، حتى اجتمع في الحبشة أكثر من ثمانين منهم، ونزلوا بخير دار، عند خير جار، آمنين على دينهم وأنفسهم.

ولكن المشركين من أهل مكة لم يتركوا أولئك المهاجرين في دَعَة، بل بعثوا وفداً إلى ملك الحبشة، الملقب بـ (النجاشي) يطالبه بإعادتهم، وتسليمهم لهم، ليفتنوهم عن دينهم، ويردوهم إلى حظيرة الشرك والوثنية. وتقدَّم رئيسا الوفد إلى النجاشي وسجدا له، وقدَّما الهدايا الفاخرة له ولحاشيته، وأخبراه أن مجموعةً خارجةً عن دينهم قد نزلوا بلاده، وطالبا بتسليمهم. لكن الملك العادل لم يتسرع باتخاذ قرار التسليم، بل طلب مقابلة هؤلاء المؤمنين، والإصغاء إليهم.

وخاف المؤمنون من هذه المكيدة، وضاقت صدورهم، وتساءلوا ماذا هم

قائلون؟ فاتفقت كلمتهم أن يشهدوا شهادة الحق التي يعتقدون، مهما كانت النتائج، وأن يمثلوا دينهم تمثيلاً صادقاً، دون مجاملةٍ، أو التواء. وانتخبوا جعفر ابن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ ناطقاً باسمهم.

وحين دخلوا مجلس الملك سلَّموا ولم يسجدوا، فقيل لهم: لِمَ لم تسجدوا للملك؟ فقالوا: إنا لا نسجد إلا لله - عز وجل - فقال لهم النجاشي: وما ذاك؟ قال جعفر: إن الله بعث إلينا رسولاً، وأمرنا ألا نسجد لأحدٍ إلا لله - عز وجل - وأمرنا بالصلاة والزكاة، وعدَّد له شرائع الإسلام ومكارم الأخلاق التي بعث بها ﷺ. وهنا أراد رئيس وفد المشركين أن يفسد هذا العرض الشيق، ويفجر قنبلةً خطيرة تقضي على وجود هذه الفئة القليلة بين ظهراني هذه الأمة النصرانية، فقال: أيها الملك! إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم. قال النجاشي: فما تقولون في عيسى بن مريم؟ قال جعفر: نقول كما قال الله؛ هو: كلمته وروحه، ألقاها إلى العذراء البتول، التي لم يمسها بشر. قال النجاشي: هل معكم شيء مما جاء به نبيكم؟ قال جعفر: نعم! ثم تلا عليه أول سورة مريم، المتضمن قصة الحمل بالمسيح، ومولده، وتكلُّمِه في المهد، فبكى النجاشي حتى بلل لحيته، وبكى أساقفته حتى بلَّلوا أناجيلهم حين سمعوا القصة القرآنية. وقال النجاشي مبدياً تأثره بالقرآن: إن هذا والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، ثم أخذ عوداً صغيراً من الأرض، وخاطب جعفراً قائلاً: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود. فهمهم الأساقفة، فتوجه إليهم قائلاً: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان! والله ما يزيدون على الذي نقول في عيسى ما يساوي هذا

العود. ثم التفت إلى المؤمنين، وقال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد صفته في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى ابن مريم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. وأمر بهدايا الوفد فرُدَّت إليهم، وردَّهم خائبين.

إن هذا الموقف المشرق لهذا الملك العادل المؤمن، لَيَكشِف لنا عن معانٍ عظيمة:

١ - التجرد للحق، والإخلاص في طلبه، وقبوله ممن جاء به، كائناً من كان.

٢ - الشجاعة في الشهادة الإيمانية، وعدم التأثر بالضغوط والاعتبارات الخارجية، أيّاً كان نوعها؛ حتى لو ترتب عليها فوات المصالح والامتيازات الخاصة؛ ففي بعض الروايات، أن عظماء الحبشة قالوا له: والله لئن سمعت الحبشة لتخعلنَّك، فقال: والله لا أقول في عيسى غير هذا أبداً.

٣ - الإصغاء الجميل، والتأمل في كلام الآخرين، وفَحْصَه فحصاً جيداً، وعدم العجلة في ردِّه، بناءً على خلفيات سابقة.

لقد نشأت علاقة وثيقة بين هذا الملك المؤمن، وبين النبي محمد ﷺ رغم بُعْد المسافات وعدم التلاقي؛ حتى إن ضيوفه من المهاجرين المؤمنين، حين أرادوا الرجوع إلى جزيرة العرب بعد انتقال النبي ﷺ إلى المدينة، جهزهم وزودهم، وبعث معهم ممثلاً شخصياً، وقال لجعفر: أخبر رسول الله ﷺ بما صنعت لكم،

وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، وقل له يستغفر لي. وقابل النبي الكريم هذا الطلب بالإجابة حين بلَّغه جعفر، فقام وتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات، قائلاً: «اللهم اغفر للنجاشي». فقال المسلمون: آمين. ثم قال جعفر لمندوب النجاشي: انطلق، فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله ﷺ. وحين توفي النجاشي - رحمه الله - نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه، في اليوم الذي مات فيه، وقال: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة». فخرج بهم إلى المصلى فكبر عليه أربعاً، صلاة الميت.

إن هذه التجربة الفريدة لتكشف أيضاً عمق أواصر الإيمان، وتخطيه حدود الزمان والمكان، وانصهار أفراده في بوتقة واحدة منسجمة، وتحدثهم بلغة مشتركة لا تفرقها العصبيات والموروثات، بل يجمعها الوعي والإيمان الخالص.

يا أهل الكتاب! (١٢)

نماذج مشرقة (٣)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

كانت دعوة الإسلام دعوةً عالمية، لا تختص بالعرب، دون بقية الأمم، ولا بجزيرتهم، دون بقية الأرض، بل هي للناس كل الناس، في الأرض كل الأرض. وانطلاقاً من هذه المسؤولية الشاملة كاتب النبي محمد ﷺ ملوك الأرض الذين لم يتمكن من الوصول إليهم بنفسه، ووجه إليهم رسائل واضحة، لا لَبْس فيه ولا غموض.

وكان من هؤلاء المخاطبين الإمبراطور الروماني (هرقل) الذي خرج لتوِّه منتصراً من صراع مرير مع الإمبراطورية الفارسية، وبسط نفوذه على بلاد الشام وفلسطين. وكان إلى جانب نفوذه السياسي يتمتع بثقافة دينية واسعة، إلى حد أنه قد بلغ درجة (أسقف) لولا انخراطه في الحكم. وفي تلك الأثناء، ورده خطاب النبي ﷺ وهو في بيت المقدس، فاهتم بالخطاب، وطفق يبحث عن أحدٍ من العرب الطارئين على المنطقة، ليستخبرهم عن هذا النبي، فاتفق وجود أحد وجهاء قريش (قبيلة النبي ﷺ المقيمة في موطنه مكة)، وهو أبو سفيان بن حرب، وكان حينذاك مشركاً، معادياً للنبي ﷺ، ومعه نفر من أصحابه، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه، وجرت هذه المحاورة العجيبة بينهما:

قال هرقل: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً.

فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره. ثمَّ قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. قال أبو سفيان: فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً لكذبت عليه.

قال هرقل: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. (يشير إلى صلح الحديبية، المبرم في ذلك العام بين النبي ﷺ والمشركين). قال أبو سفيان: ولم تمكني كلمة أُدخِل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم!

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحدَه، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال هرقل للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه مِنْ مَلِك؟ فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف. فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدميَّ هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»[1].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات، وأخرجنا.

لقد طرح هذا الملك، العالم، العاقل، عشرة أسئلة كاشفة، ثم حلل إجاباتها تحليلاً دقيقاً، ثم خلص إلى النتائج التالية:

١ - أن محمداً رسولٌ من عند الله حقاً.

٢ - أنه النبي المنتظر، المبشَّر به في التوراة والإنجيل.

٣ - أن دينه سيظهر، ويملك المعمورة.

وقد كان الموقف الشخصي لهرقل واضحاً، وإيمانه الداخلي بصدق نبوة محمدٍ ﷺ جلياً، إلى الحد الذي يتمنى أن يغسل قدميه. وقام فعلاً باستطلاع رأي (الروم)، فقوبل بمعارضةٍ شديدةٍ، ورفضٍ قاطعٍ، فضنَّ بملكه ونفوذه، ولم يتمكن من إقناع الروم بالدخول في الإسلام. وصدقت توقعاته، فلم يكد يمضِ

(١) أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي: ١/ ٧.

عشر سنين على هذه الحادثة، حتى تسلَّم أمير المؤمنين، صاحب رسول الله ﷺ، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مفاتيح بيت المقدس، وملك المسلمون موضع قدمي هرقل.

يا أهل الكتاب! (١٣)

الأحبار والرهبان

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

من الطبيعي والسائغ أن تتخصص طائفة من الناس في العلوم الدينية، وأن يكون لهم منزلة مميزة بحسب تفوُّقهم في هذا التخصص، كما هو الحال في جميع المجالات. وقد وُجِد في جميع الديانات السابقة للإسلام - سواءٌ منها ما كان ذا أصل سماوي؛ كاليهودية والنصرانية، أو كانت ديانات وثنية - منظومة كهنوتية، وسُلَّم هرمي لمن يسمَّون بـ (رجال الدين)، ومنحهم ذلك صلاحيات متفاوتة. والسؤال الذي نثيره في هذا المقام: هل كان هذا الترتيب الهرمي مما جاء به الأنبياء؟ وما هي منزلة (رجال الدين) من الأحبار والرهبان؟ وما هي صلاحياتهم؟

من المؤكد - قطعاً - أن موسى - عليه السلام - لم يصنع سلماً وظيفياً يقف على رأسه الحاخام الأكبر، وأن عيسى - عليه السلام - لم يؤسس للرتب الكنسية الثلاث: الشَّمَّاسية، والقسوسية، والأسقفية، ولم ينشئ نظام الكهنوت (الأكليروس)، كما أن محمداً ﷺ لم يفعل مثل ذلك.

وغاية ما في الأمر، أن يُنتَدب طائفة من أصحاب النبي وحوارييه، فيعتنون بحفظ أقواله وأفعاله، والعمل بتوجيهاته، ويصبحون مرجعاً لمن حولهم، ويقومون بتعليم الدين للجيل الذي بعدهم، وهكذا يزاول المتفوقون من الجيل

الثاني القيام بالمهمة ذاتها للجيل الثالث، وهكذا. ومن الطبيعي أن تُسْنَد المهمات الدينية: من تعليم، وإقامة الشعائر، والفتيا... ونحو ذلك، إلى هذه الطبقة المتخصصة، كما أن من الطبيعي أن تحظى هذه الفئة المميزة بِقَدْر كبير من الاحترام، والتقدير، والمحبة؛ لما يُفتَرَض فيهم من الإخلاص، والتجرد، والرغبة في نفع الناس.

إلا أن واقع (رجال الدين) في التاريخ اليهودي، والنصراني، قد انحرف عن المسار الطبيعي، العفوي، المشار إليه، وتحول إلى هيكلية معقدة، وأوضاع مبتدعة، لم يأمر بها أنبياء الله، بل لو خرجوا ورأوها، لأصابتهم الدهشة، واستنكروها. ومن صور الانحراف المتعلقة بالأحبار والرهبان، ما يلي:

١ - الغلو فيهم، وتقديس ذواتهم، ورفعهم فوق منزلتهم البشرية، وعبادتهم: وقد حدث ذلك عن طريق صنع التماثيل، والأيقونات للصالحين، بدعوى حفظ ذكراهم، أولاً، ثم التوجه إليهم بالدعاء، وسائر صور العبادة، لاحقاً.

٢ - مَنْحُهم العصمة في أقوالهم، والصواب المطلق في تصرفاتهم: جاء في التلمود ما نصه: (من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت أكثر ممن احتقر أقوال التوراة... لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى)[1]. وقد اعتبرت الكنيسة من أسرارها المقدسة (سر السيامة)؛ وهو انتقال سلطة يسوع الروحية إلى الرسل جيلاً بعد جيل. ومُنحَت هذه العملية لقادة الكنيسة عن طريق وضع الأيدي على الرؤوس، فتسري فيهم الخلافة الرسولية! ثم زعمت الكنيسة

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود: ٥١.

أن المجامع المسكونية التي يحضرها جميع الأساقفة، لها صفة العصمة، بدعوى أن (روح القدس) يرعى قرارات المجمع ويسددها! ثم انتقل الأمر إلى ادِّعاء (عصمة البابا) وثار حوله لغط، ونزاع كثير.

ومن آثار هذا الغلو، طاعة أولئك الأحبار والرهبان في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، والعبث بالشريعة؛ وقد وقع في غضون التاريخ اليهودي من قِبَل الأحبار، والحاخامات إضافات كثيرة، وآصار، وأغلال، أرهقت اليهود، وشددت عليهم دينهم. كما وقع من (بولس) في الديانة النصرانية إلغاء تام للشريعة، واكتفاء بالإيمان النظري لتحقيق التبرر والخلاص. وبذلك خرج الأتباع عن ملَّة إبراهيم – عليه السلام – التي تقوم على التوحيد الخالص لرب العالمين، والاتباع للمرسلين.

وقد جاء محمدٌ ﷺ ليرد الأمور إلى نصابها، ويجدد ملَّة إبراهيم، وينشر الشريعة الوسط لتنظيم شؤون الناس دون إفراط ولا تفريط. وصار العلماء من أمَّته حفظةً للشريعة، وحراساً لها، ليس لهم صفة كهنوتية يستطيلون بها على الناس، بل هم أفراد عاديون، ومواطنون يمارسون مناشط معيشية عامة: من التجارة، والزراعة، والصناعة، كسائر الناس، وليس لهم رتب ولا أزياء ولا امتيازات خاصة، سوى ما وهبهم الله من العلم والإيمان، المستمدِّين من أصلين معلنَين، مبذولَين لعموم الأمة، وهما الكتاب والسُّنة.

يا أهل الكتاب! (١٤)

الكنيسة والأسرار (١)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

عاش عيسى بن مريم - عليه السلام - والحواريون يعبدون الله - تعالى - في مسجد أنبياء بني إسرائيل، المسمى (الهيكل)، لفضله وعراقته. ولم يشأ المسيح أن ينفصل بجماعته المؤمنين عن عامة اليهود، أو أن يتخذ لنفسه وحوارييه مصلىً خاصاً، فضلاً أن يأمر أتباعه بذلك. وبعد رفع المسيح - عليه السلام - ظل الحواريون والتلاميذ يواصلون صلواتهم في المسجد الشريف ذاته، وحيثما حلُّوا صلوا في معابد اليهود. وكان يطلق على ذلك الرعيل الأول (أساقفة الختان)، أو هكذا أطلق عليهم مخالفوهم من أتباع بولس. ومن المقطوع به لدى مؤرخي الكنيسة أن المسيح لم يؤسس كنيسة مستقلة.

وحين تنامى الاتجاه البولسي في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، خرجت فكرة الكنيسة من صورتها البسيطة، إلى مؤسسة دينية معقدة، ذات رتبٍ كهنوتية متدرجة: (الشماسية، القسوسية، الأسقفية)، وطقوسٍ تعبدية محدَثة، وبناءٍ هندسي خاص. وأُثقِلَت لاحقاً بالأيقونات، والتماثيل في أرجائها، وخُصِّص لها فرق إنشادية تتلو الصلوات على أنغام الآلات الموسيقية، إلى غير ذلك من الإضافات. وتم طرد ورثة المسيح وأقربائه الذين كانوا يُنبَزون بأساقفة الختان، عام

١٣٥م، من قِبَل أتباع بولس الذين سلبوهم رئاستها.

لقد تحولت البقعة المخصصة لأداء الشعائر والصلوات، إلى ما يشبه هياكل الوثنيين، في صورتها المعقَّدة، وتنظيماتها الكهنوتية، وفقدت صبغتها الإيمانية بالإغراق في الشكليات من جهة، وفي الوقوع في الضلال العقدي من جهة أشد. وفي غضون تاريخ الكنيسة جرى إرساء مجموعة من (الأسرار الكنسية) العجيبة، يجزم المؤرخ واللاهوتي أنها لا تمتُّ إلى دين المسيح بِصِلَة، بل كانت جملةً من البدع والهرطقات، أحدثها بولس، وزاد عليها الأحبار والرهبان على توالي السنين. وسوف نتناول في الحلقات التالية الحديث عن هذه الأسرار، ونتأمل في حقيقتها الدينية. والله الهادي إلى سواء السبيل.

يا أهل الكتاب! (١٥)

الكنيسة والأسرار (٢)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد :

بعث الله أنبياءه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن الخرافة إلى الحقيقة، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وجاءت الرسالات السماوية لتقضي على الشرك، والشعوذة، والسحر، والكهانة، وجميع ما يتسلط الناس به على الناس، ويستعبدونهم به من دون الله. وحين دبَّ الانحراف في أتباع الرسالات، أحدثوا طقوساً، وهيئات، ومراسم، معقدة، شبيهة بالممارسات الوثنية، ليست من أمر الله، ولا من هدي أنبيائه، ليستطيلوا بها على البشر، ويفرضوا عليهم ألواناً من التأثيرات الغامضة.

وقد وقع في تاريخ الكنيسة قَدْرٌ كبير من هذه البدع المحدثة، والأسرار المزعومة، ويجزم الباحثون أنها ليست مما جاء به المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، ومن ذلك :

سر المعمودية، أو العماد، أو التعميد، أو الاصطباغ (BAPTISM) :

وهو طقس متفق على أصله بين جميع الطوائف النصرانية، وقد تختلف كيفيته في بعض التفاصيل. وذلك أنه يتعين على من أراد أن يعتنق النصرانية، أن يدخل غرفةً خاصةً في الكنيسة، ويضطجع متوجهاً إلى الغرب، قائلاً : أيها الشيطان! إني أتبرأ

منك، ومن جميع عملك، ثم ينقلب جهة الشرق، ويعلن الإيمان بعقائد الكنيسة، ثم ينقل إلى غرفة أخرى، فيتعرى، ويقوم القسيس بدهن جميع بدنه بالزيت المقدس، المسمى بـ (الميرون) (MYRON)، ثم ينغمس في حوض الاصطباغ في الماء، أو يوضع عليه الماء، ثم يسأله القسيس المعمِّد: هل تؤمن بالآب والابن وروح القدس؟ فإذا أجاب بالإثبات، يخرج من الحوض، ويدهن بالزيت المقدس، مرةً ثانية، ثم يقدِّم له لباساً أبيضاً، وبذلك يصبح (معمَّداً) و(مُبَرَّراً) وصالحاً للمشاركة في بقية الطقوس الكنسية، وعضواً في الجماعة المؤمنة بالمسيح.

وقد عرَّفها أحد اللاهوتيين بقوله: (فريضة مقدسة، يشار إليها بالغسل بالماء، باسم الآب والابن وروح القدس، إلى تطهير النفس من أدران الخطيئة، بدم يسوع المسيح)[1]، وعبر عن غايتها أحد المعاصرين، فقال: (والغاية من المعمودية هو تطهير طالب الدخول في المسيحية، أو الطفل المولود لأبوين مسيحيين، من خطيئة الإنسان الأصلية، التي هي خطيئة آدم؛ بحيث يصبح المعمَّد جاهزاً لقبول النعمة الإلهية، والخلاص من خلال المسيح)[2]. فيا أهل الكتاب! هلاَّ تأمَّلتم في هذا الطقس الكنسي ونظرتم في صورته وتفسيره نظرة إنصاف، وتعقُّل، وستكتشفون الحقائق التالية:

أولاً: أن المسيح - عليه السلام - لم يُعمِّد أحداً، مطلقاً[3]؛ فكيف صار

(١) الأصول والفروع، يسوع المسيح: ص٢١٠.

(٢) المسيحية في العالم العربي: ص ٤٨.

(٣) انظر إنجيل يوحنا: ٤/ ٢.

ذلك شرطاً لاعتناق دينه؟ إن الدخول في دين الله لا يتوقف على هذه المراسم الشكلية، بل يكفي أن يعتقد بقلبه، ويعلن بلسانه، ويلتزم بأفعاله، دون طلب فَسْحٍ من مخلوق، أو أداءٍ في بقعة معيَّنة.

ثانياً: أن الانغماس في الماء، والطلاء بالزيت لا يقدِّس الكفار، والخطاة، والمذنبين، بل الإيمان والتوبة القلبية الخالصة، المعبَّر عنها باللسان، والسلوك الحميد، والالتزام بالتعاليم الصحيحة، هي التي تطهر الإنسان، وترزقه البر والخلاص.

ثالثاً: أن الإنسان يولد بريئاً، غير مذنب، ولا وارثٍ لخطيئة. قال - تعالى - : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، وقال: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فأية إساءة للإنسان أن يوصم بالخطيئة بمجرد ولادته، ولَـمَّا يقترف سوءاً بعد؟ وأية إساءةٍ، وعقوق لأبينا آدم، أن ينبز بذنب تاب منه، وتاب الله عليه؟

إن أي عاقل - معشر أهل الكتاب - ليدرك أن أساس هذا السر الكنسي المزعوم باطل، وصفته الكهنوتية تشبه إلى حدٍّ كبير أداء كهنة المِلَل الوثنية. وكل ذلك يدعو إلى إعادة النظر، والبحث الدقيق، والتأمل العميق في دين الله الحق، وتجريده من البدع المحدثة، وهو تماماً ما جاء به محمدٌ ﷺ، مصدقاً للأنبياء قبله، وأَولاهم به عيسى بن مريم، رسول الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

يا أهل الكتاب! (١٦)

الكنيسة والأسرار (٣)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فمن الأسرار الكهنوتية التي تمارسها الكنائس لدى مختلف الطوائف، وتحتفي بها:

(العشاء الرباني) أو (القربان المقدس) (EUCHARIST) (الأفخارستيا):

وهو طقس تعبدي جرى إيجابه في مجمع (ترنت) المعقود في الفترة: (١٥٤٥م - ١٥٦٣م)؛ حيث يقوم راعي الكنيسة (الأسقف، أو القسيس) بتقديس خبز وخمر، ثم يقوم بتقديمها للحضور، فيتتابعون على غمس كسر الخبز بإناء الخمر، ويأكلونه، معتقدين أن الخبز استحال إلى جسد المسيح، وأن الخمر استحال إلى دمه! وبناءً على ذلك؛ فالمؤمن يأكل جسد المسيح خبزاً، ويشرب دمه خمراً؛ ليحظى بالنعمة الإلهية! ومستندهم في ذلك ما ورد في إنجيل متَّى: (بينما هم يأكلون، أخذ يسوع قطعة خبز، وبعد أن باركها، كسرها وأعطاها لتلاميذه، وقال: خذوا وكلوا، هذا هو جسدي! ثم أخذ كأساً، وبعد أن باركها، أعطاها لهم، وقال: اشربوا جميعاً من هذه الكأس، فهذا هو دمي؛ دم العهد الذي يسفك من أجل كثير لمحو الخطايا) [متَّى/ ٢٦].

وجدير بالذكر أن مدار الطقوس الكنسية في صلاة الأحد، في جميع الكنائس، لدى جميع الطوائف النصرانية، على هذا السر (سر القربان المقدس)،

ويسمى أيضاً: (سر الشكر)، على اختلاف شكلي في طريقة التقديم، أو المباركة (التقديس). بل إن غرض المشاركين في (القداس) هو الحصول على البركة التي يمنحها الكاهن (راعي الكنيسة) لرعيته، عن طريق العشاء المقدس، بعد انقضاء مراسم القداس.

إنني أدعو جميع العقلاء، من أهل الإنجيل، ونحن في عصر العلم والعقل والمخترعات، أن يمعنوا النظر في هذا السر المزعوم، والطقوس المتكلَّفة المصاحبة له، ويُسَائلوا أنفسهم بصدق، وإخلاص:

أولاً: لِمَ تأخر إقرار هذا السر، وإقامة طقوسه إلى القرن السادس عشر؟ وهل وَسِعَ الأجيال المتعاقبة من المنتمين للنصرانية أن يعيشوا أكثر من خمسة عشر قرناً، دون نعمة إلهية، تتحقق بالقربان المقدس؟ ألا ترون أن هذه بدعةٌ حادثةٌ، أضافتها الكنيسة، وطبقة (الإكليروس) لممارسة مزيد من الإذلال والإيهام لأتباعهم؟

ثانياً: كيف يمكن لِحَبٍّ صار دقيقاً، ثم خُلط بالماء، وعُرض على النار، فصار خبزاً، أن يكون بمثابة لحم المسيح؟ وأنى لعنبٍ صار عصيراً، ثم تُرك فاستحال خمراً مسكراً، أن يكون بمثابة دم المسيح؟ أليست هذه عبثيات أشبه بالطقوس الوثنية لدى القبائل الهمجية في أدغال إفريقيا، أو مجاهل الأمازون وأستراليا، لا تليق بدين سماوي من عند الله.

ثالثاً: أي مصلحة للإنسان أن يمتزج جسده بلحم المسيح، ودمه بدمه، بهذا الأداء الشكلي المغرق في المادية؟ إن ذلك ليدل على إصرار الكنيسة على

تكريس مبدأ الحلول والتجسد؛ فكما أن الكنيسة ظلت تقرر أن الإله حل في جسد المسيح، وعاش بين الناس، فهي بهذا الأسلوب ترمي إلى نقل الفكرة إلى مستويات أخرى.

الحق أن المسيح - عليه السلام - عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه. وقد أرسله الله بتوحيده، وعبادته، واتباع شريعته، كما قال - عليه السلام - مخاطباً أسلافكم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

يا أهل الكتاب! (١٧)

الكنيسة والأسرار (٤)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإن السر الثالث من الأسرار الكنسية، الأصلية، المزعومة، هو:

(سر السيامة):

وقد تقدَّمت الإشارة إليه، وأنه يعني: انتقال سلطة يسوع الروحية التي وهبها للرسل، من جيل إلى جيل، لقيادة الكنيسة، عن طريق (وضع الأيدي) على الرؤوس، فحينئذٍ تسري (الخلافة الرسولية) في الرتب الكنسية الثلاث: الأسقفية، والقسوسية، والشماسية! ومستندهم في ذلك أن يسوع ظهر للتلاميذ، في الليلة التي قام فيها من الأموات، فقال: كما أرسلني الآب كذلك أنا أرسلكم. ولما قال هذا، نفخ فيهم وقال: خذوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم[1].

والتلاميذ بدورهم نقلوا هذه السلطة الروحية إلى أتباعهم بطريقة وضع الأيدي على الرؤوس، وهو (سر السيامة)! وللعقل الصريح وقفات أمام هذا السر:

إن العقل الصريح يأبى أن تتحول المنحة الربانية بالمغفرة والتوبة، إلى سلطة

---

(١) انظر: يوحنا: ٢٠/ ٢١ - ٢٣.

بشرية تحتكرها فئة معيَّنة، وتتوارثها بطريقة الملامسة ووضع الأيدي! إن قبول التوبة حق خالص لله، تعالى. قال - سبحانه -: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وقال نبيه محمد ﷺ: (فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت). وهذا يُسْلِمنا إلى سرٍ عجيب من الأسرار الفرعية المزعومة، وهو:

(سر الغفران):

وهو نيل الغفران والتكفير عن الخطايا، بالاعتراف والبوح للقسيس بما اقترف الشخص من آثام، مُظهِراً الندم، وعدم العود، فيقوم القسيس بمحو سيئاته، وربما أصدر (صك غفران). ولم يتقرر هذا السر، ولم تُعتَمَد طقوسه إلزامياً، إلا بعد المجمع الثاني عشر، المنعقد عام ١٢١٥م، وجرى تعاطيه بصورة مزرية. وللعاقل أن يتساءل:

١ - (التوبة) عبادة؛ فكيف يتوجه بها المخلوق إلى مخلوقٍ خطَّاءٍ مثله؟

٢ - ما الفائدة من إفشاء سرِّه، ونشر خزيه، أمام بشر مثله؟

٣ - كيف تأخر تفعيل هذا السر الخطير، وتعميم طقوسه إلى القرن الثالث عشر الميلادي؟ وما حال القرون الأولى؟

وقد ألحقت الكنيسة بهذا السر (سرَّ الإماتة)، أو (الطقوس الأخيرة)؛ أي: الصلاة على المحتضر؛ لتحقيق الغفران أيضاً؛ وكأن الغفران نوع من الشعوذة وتحضير الأرواح.

وبالإضافة إلى (سر الغفران) ثَمَّ ثلاثة أسرار أخرى، هي:

(سر الزواج المقدَّس): ويعني أن الاقتران بين الزوجين بمباركة الكنيسة يجعلهما جسداً واحداً، حتى إن الكنيسة الكاثوليكية تحرِّم الطلاق تحريماً مؤبداً، ولا تسمح بالطلاق، مهما بلغ الحال؛ ولو مع الخيانة الزوجية.

(سر مسحة الميرون): لمنح نعمة مواهب الروح القدس لتثبيته في الحياة.

(سر مسحة الزيت): لشفاء المرضى (نفسياً وبدنياً)[1].

وهكذا - معشر أهل الكتاب - استحال دين المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - من دين حكمة وبيان، إلى مجموعة من الطلاسم والأسرار، بسبب رجال الكهنوت الذين يضاهئون بذلك الديانات الوثنية، والمسيح منها براء. قال - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤].

(١) انظر في تفاصيل هذه الأسرار: تاريخ الكنيسة المسيحية، أفغراف سمير نوف، ص: ١٦١ - ١٦٦.

يا أهل الكتاب! (١٨)

نبوة محمد ﷺ (١)

السلام على من اتبع الهدى:

يا أهل الكتاب! يا ورثة التوراة والإنجيل! قد ناداكم الله - تعالى - في القرآن العظيم نداءً عظيماً، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. إن هذا الآية لتكشف عن حقائق كثيرة مهمة:

أولاً: إن حال أسلافكم قبيل بعثة النبي الخاتم محمد ﷺ، قد آل إلى نوعٍ من الالتباس، والخلاف، وإخفاء الحقائق. وهذا أمرٌ ثابت تاريخياً، يدركه علماء اللاهوت، كما يحفظه علماء التاريخ. فكان لا بد للمنضوين تحت دين الله، المنتمين إلى أنبياء الله، أن يخرجوا من هذه الدوامة، وينفكوا من هذه الأزمة، ببيانٍ شافٍ، كافٍ، من عند الله. وقد كان ذلك؛ تأملوا قول الله - تعالى -: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ١ - ٣]. وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

لقد كانت بعثة محمد ﷺ رحمةً للبشرية عموماً، ولكم أهل الكتاب خصوصاً؛ فقد جاء ليرفع الالتباس، ويحسم الخلاف، في قضايا طالما أهريقت

الدماء بسببها، وتبودلت اللعنات من جرّائها، وأُصدِرَت قرارات الحجب، والحرمان، بين مختلف الفرقاء نتيجةً لها.

ثانياً: إن هذا النبي المنتظر بُعِثَ بالعفو، والصفح، والرحمة، والتخفيف. وكان يقول لجيرانه من اليهود، في المدينة: «يا معشر اليهود! أروني اثني عشر رجلاً، يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأني محمداً رسول الله، يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه»[1] لقد كان عرضاً مغرياً، وفرصة سانحةً اهتبلها كثير من أسلافكم، واغتبطوا بنعمة الإيمان، وسماحة الإسلام، وأبى آخرون فظلوا يتقهقرون في الضيق والشدة، وبقوا مرتهنين لتعاليمَ محرَّفة، اختلط الحق فيها بالباطل.

ثالثاً: إن دلائل صدق هذا النبي ظاهرة، جلية، بمنزلة النور الذي يكتسح الظلمات؛ فلا تخطئه عين، والبيان الذي لا لبس فيه؛ فلا يضل عنه عقل: ﴿**نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ**﴾ [المائدة: ١٥]. فالناظر المتأمل بإخلاص وتجرد، يستيقن أن المضامين الإيمانية والتشريعية التي جاء بها محمد ﷺ من عند الله، متناغمة مع ما جاء به أنبياء الله، وليست فكراً قومياً، أو مشروعاً إقليمياً، أو فلسفةً عقلية، بل هي دعوة ربانية، تستوعب الجوانب الإنسانية، وتخاطب عموم البشرية. وهي في الوقت ذاته تقدِّم دليلاً محفوظاً، يمكن لكل أحد، في كل حين، في كل مكان، أن يفحصه، ويتثبت منه، وهو (الكتاب المبين) أي القرآن، الذي هو كلام الله حقاً،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه: ١١٩/١٦، والحاكم في المسترك: ٤٦٩/٣، والطبراني في الكبير: ٤٠٩/١٢. وصححه شعيب الأرناؤوط.

وخطابه لبني البشر، دون تمييز.

فهذا كتاب الله (القرآن) - معشر أهل الكتاب - اقرؤوه! وتأمَّلوا فيه! فستجدون دلائل الصدق، وبَرْدَ اليقين في آياته، وأنه بحق مصدقٌ لما سبقه من التوراة والإنجيل. وسيتبين لكم أن المبلِّغ لهذا القرآن هو نبي الله حقاً. وأي غرابة في أن يبعث الله للناس رسولاً، يجدِّد لهم ما اندرس من دين الله، ويشرع لهم ما يواكب مستجدات حياتهم، ويؤيده بالبراهين والدلائل الشاهدة على صدقه.

يا أهل الكتاب! (١٩)

نبوة محمد ﷺ (٢)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فقد ناداكم الله - تعالى - نداءً آخر، مفعماً بالإغراء، والموعظة المؤثرة، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

لقد كانت الفترة التي أعقبت رفع المسيح - عليه السلام - فترةً تزيد على ستة قرون، آلت فيها البشرية منكم أهل الكتاب، فضلاً عن الأمم الوثنية إلى حال من الفوضى والاضطراب لا توصف. وكان مقتضى الحكمة الإلهية، والرحمة الربانية، أن ينقذ الله البشر من هذا المأزق ببعثة نبي جديد، لتخليصهم من التخبط العقدي، والخُلقي، والاجتماعي، الذي يعانونه؛ فهل كانت بعثة نبي في آخر الزمان مفاجئةً لكم، مخالفةً لما في كتبكم؟ أم كانت قضيةً متوقَّعةً نطقتْ بها الأسفار، وبشرت بها النصوص الدينية التي بين أيديكم؟ إليكم هذه الشواهد القطعية من العهد القديم الذي تؤمنون به جميعاً:

١ - جاء في سفر التثنية: (فقال لي الرب: سأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك. وأجعل كلامي في فمه فيخاطبهم بكل ما آمره به) [١٨/ ١٧ ١٨، (٣٨٥)].

إن لفظ «إخوتهم» يُستعمَل في التوراة في حق بني إسماعيل. يقول البروفسور اللاهوتي، عبد الأحد داود، معلقاً على النص السابق: (فإذا كانت هذه الكلمات لا تنطبق على «محمد» فإنها تبقى غير متحققة ولا نافذة؛ فالمسيح نفسه لم يدَّعِ أبداً أنه النبي المشار إليه؛ حتى إن حوارييه كانوا على الرأي نفسه، وإنهم يتطلعون إلى دعوة المسيح مرة ثانية لكي تتحقق النبوءة، وحتى الآن فإنه من الثابت غير المنقوض أن «الظهور الأول للمسيح» لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة «أقيم لهم نبياً مثلك»، وكذلك فإن عودة المسيح مرةً ثانية لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات. وإن المسيح - كما تؤمن به كنيسته - سوف يظهر كقاضٍ، وليس كمقدِّم للتشريع؛ بينما الموعود هو الذي يجيء حاملاً «الشريعة النارية المشعَّة بيده اليمنى»[1].

٢ - جاء في سفر التثنية أيضاً: (أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وسطع من جبل فاران) [٣٣/ ٢].

قال الشيخ رحمت الله الهندي مبيناً هذه الجمل: (فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى - عليه السلام - وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى - عليه السلام - واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن؛ لأن فاران جبل من جبال مكة. وفي الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في وصف حال إسماعيل - عليه السلام - هكذا: «٢٠ وكان الله معه، ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي

(١) محمد في الكتاب المقدس: (٣٠) عبد الأحد داود، ترجمة: فهمي شما، مراجعة وتعليق: أحمد محمد الصديق، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمَّان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

بالسهام، وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر»[١]

٣- وجاء في سفر التكوين: (وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه، وها أنذا أباركه وأنميه وأكثّره جداً جداً، ويلد اثني عشر رئيساً، وأجعله أمة عظيمة) [١٧/ ٢٠].

وهذا النص يناسب دعاء إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - في القرآن: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

ولا ريب أن هذه الدعوة إنما تحققت ببعثة محمد ﷺ، وأن «الأمة» المسلمة المنشودة إنما هي أمته. يقول البرفسور عبد الأحد داود: (فإذا كان «محمد» - وكما هو معروف للجميع - قد جاء من نسل إسماعيل، وابنه قيدار «عدنان»، ثم ظهر بعد ذلك نبياً في قفار فاران، ثم دخل مكة مع عشرة آلاف قديس «مؤمن»، وجاء بالشريعة النارية إلى شعبه، أو ليست هذه النبوءة السالفة الذكر هي التي تحققت بالحرف الواحد؟)[٢].

(١) إظهار الحق: (٤/ ١٣٥).

(٢) محمد في الكتاب المقدس: ص٣٢.

يا أهل الكتاب! (٢٠)

نبوة محمد ﷺ (٣)

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فحين بعث الله - تعالى - عيسى - عليه السلام - حمَّله بشارةً سعيدةً للبشرية؛ ألا وهي بعثة رسول خاتم من عند الله، لعموم البشرية. قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وهو بذلك - عليه السلام - يكشف بشكل واضح عن الترابط الوثيق بين الرسالات السماوية، ويبيِّن أن دين الله واحد وإن تنوعت شرائعه، ويحيل أتباعه المؤمنين إلى هذا النبي الموعود؛ ليكونوا أسعد الناس به إذا ظهر. وقد تضمنت الأناجيل المتداولة في أيديكم - معشر النصارى - طرفاً من هذه البشارات، ومن شواهد ذلك:

١ - جاء في إنجيل «يوحنا» ما نصه: (إذا كنتم تحبونني حفظتم وصاياي، وأنا سأسأل الآب فَيَهَب لكم مؤيِّداً آخر يكون معكم للأبد) [١٤/ ١٥، ١٦]، ثم قال في فِقْرة لاحقة من الإصحاح نفسه: (ولكن المؤيِّد الروح القدس الذي يرسله الآب باسمي، هو يعلِّمكم جميع الأشياء ويذكِّركم جميع ما قلته لكم) [١٤/ ٢٦]. وقد نقل الشيخ رحمت الله الهندي هذا النص عن التراجم العربية المطبوعة سنة ١٨٢١م

وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م في لندن على النحو التالي: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي (١٦) وأنا أطلب من الآب فيعطيكم «فارقليط» آخر ليثبت معكم إلى الأبد (١٧) روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله؛ لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه؛ لأنه مقيم عندكم، وهو ثابت فيكم (٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الآب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كلَّ ما قلته لكم (٣٠) والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنوا).

هذا النص المنسوب إلى المسيح - عليه السلام - يتفق في مضمونه مع البشارة القرآنية الواردة على لسانه - عليه السلام -: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وقد كان عيسى - عليه السلام - يتكلم بالعبرانية، فلما كتبت الأناجيل باليونانية عُبِّر عن المبشَّر به بلفظ «بيريكليتوس»، فلما عُرِّبت الأناجيل كتبها بعضهم بلفظ «الفارقليط»، وترجمها بعضهم الآخر بمعنى «المعزِّي». يقول أحمد ديدات: («أحمد» أو «محمد» المُثْنَى عليه أو الممدوح أو المحمود (The Praised One)، هو تقريباً ترجمة للكلمة اليونانية «بيركليتوس» (Periclytos)؛ في إنجيل يوحنا الموجود حالياً (يوحنا ١٦/١٤، ٢٦/١٥، ١٦/٧) تأتي كلمة «كومفرتر» (Comforter) في النسخة الإنجليزية (التي تترجم في التراجم العربية بـ «المعزِّي») عوضاً عن الكلمة اليونانية «باراكليتوس» (paracletos) التي تعني: «المحامي» أو «المؤيد» أو «الشفيع» (Advocate) «الذي يدعى لمساعدة أو معاونة (إنسان) آخر (الصديق، أو الولي)، الودود الحنون». وهذه الترجمة مفضلة عن ترجمتها بـ «المعزِّي». ويؤكد علماؤنا على

أن كلمة «باراكليتوس» (paracletos) تفسير خاص محرَّف، أو قراءة محرفة لكلمة «بيريكليتوس» (periclytos) ومعناها: المستوجب للحمد. وأنه كان في القول الأصلي لعيسى نبوءة خاصة بنبينا الكريم «أحمد» بالاسم [٤٠٢]. وحتى لو قرأناها «باراكليت» (بارقليط أو فارقليط) (paraclte) فإنها تشير إلى النبي الكريم «المبعوث»﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهو﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] . . . إنه من الواضح لكل الباحثين عن الحق بإخلاص أن محمداً ﷺ هو «الباراكليت» الموعود (The promised paraclete)، أو المعزِّي (Comforter) المسمى أيضاً على سبيل التخيير بالمساعد أو المعين (helper)، والمحامي، والمؤيد، والشفيع (Advocate)، والناصح الأمين أو المشير (Counsellor). . . إلخ المذكور في نبوءات عيسى - عليه السلام - في إنجيل يوحنا)[1].

٢ - ويزيد الأمر وضوحاً حول شخصية «الفارقليط» أو «المعزِّي» ومهمته ودوره، ما جاء في إنجيل يوحنا على لسان المسيح - عليه السلام -: (أما الآن فإني ذاهب إلى الذي أرسلني. وما من أحدٍ منكم يسألني: إلى أين تذهب؟ بل ملأ الحزن قلوبكم؛ لأني قلت لكم هذه الأشياء، غير أني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أذهب، فإن لم أذهب لا يأتيكم المؤيد. أما إذا ذهبت فأرسله إليكم وهو متى جاء أخزى العالم على الخطيئة والبر والدينونة: أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على البر فلأني ذاهب إلى الآب فلن تروني، وأما

(١) مفهوم العلاقة بين الله والبشر في الأديان السماوية: (٣٣٠).

على الدينونة فلأن سيد هذا العالم قد دين. لا يزال عندي أشياء كثيرة أقولها لكم، ولكن لا تطيقون الآن حملها؛ فمتى جاء هو؛ أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه لن يتكلم من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث، سيمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم به) [١٦/ ٥ ١٤(٤٠٤)].

وهذه البشارة بـ «المؤيد» أو «المعزِّي» كما في بعض الترجمات صدرت في الأيام الأخيرة من حياة المسيح - عليه السلام - قبل رفعه كما هو واضح في إنجيل يوحنا. ولعل فيها بياناً لسبب تلقيب المبشر به بـ «المعزِّي» أو على الأقل لترجمته بذلك. وهو أن رجاء قدومه وبعثته يزيل الكآبة التي ملأت قلوب الحواريين لفراق المسيح، فيكون في ذلك عزاء لهم. كما أن فيه دلائل قوية متعينة على إرادة النبي ﷺ بهذه البشارة، منها:

١ - أنه يقيم الحجة البالغة على العالم.

٢ - أنه يبين مقتضى الإيمان الصحيح بالمسيح - عليه السلام - بين الغالي فيه والجافي عنه؛ بين النصارى الذين رفعوه فوق منزلته وألّهوه وادعوا بُنُوَّته لله - تعالى - واليهود الذين كفروا به وزعموا أنه ابن سفاح وآذوه أشد الإيذاء وهموا بقتله. وأما هو ﷺ فقد مجَّده؛ لأنه يتلقى الوحي من الله الذي أرسل كلاً منهما - عليهما السلام - وأدَّاه كما سمعه.

٣ - أنه يجيء بالحق الكامل، والهداية التامة الشاملة الموحى بها من عند الله - تعالى -: (فمتى جاء هو؛ أي روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله؛ لأنه

لن يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بما سيحدث...). قال الله - تعالى -: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

إن نظرة منصفةً، وقراءةً واعية متجردة لهذه النصوص وأمثالها، لَتَدل على الترابط الوثيق بين أنبياء الله، وأنهم حلقات متماسكة من سلسلة كريمة، هي دين الله الخالد، الذي ابتدأ بنوح، وخُتِمَ بمحمد، عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً.

يا أهل الكتاب! (٢١)

شهادة التاريخ

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد :

ففي سياق السجال حول مصداقية (دين الإسلام) الذي بعث الله به محمداً ﷺ ، واعتباره الصورة النهائية الكاملة، والصيغة المُرْضِية لدين الله في الأرض، يبرز شاهد كبير، لا يمكن إغفاله، ولا تخطئوه عين منصف؛ ألا وهو (التاريخ).

شهدت العقود الأولى التالية للفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، والعراق، ومصر، انخراط أعدادٍ كبيرةٍ من سكان البلاد الأصليين من أهل الكتاب في الدين الجديد، وقد جرت عملية «إسلام» لا «أسلمة» لتلك الشعوب، بشهادة المؤرخين المنصفين من غير المسلمين، ودهشتهم في الوقت نفسه. وفي الدراسة المتميزة التي أعدها فيليب فارج، ويوسف كرباج، بعنوان: «المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي» يطرح الباحثان سؤالاً لافتاً: (كيف تسنَّى لحفنة من الفاتحين، الذين يتميز إيمانهم بهذه الدرجة من الحمية، الفوزَ بولاء جماهير على هذه الدرجة من الضخامة، وعلى هذه الدرجة من البعد؟ كيف أمكن العثور في مصر، وفي الهلال الخصيب، على نقطة توازن بين الضغوط المتعارضة التي مثَّلها

التوسع الإسلامي، والمقاومة المسيحية؟)[1].

ويعترف الباحثان بأن: (الإكراه عليه (أي: اعتناق الإسلام) كان غائباً في أغلب الأحيان، وهو لم يحدث في تاريخ الإسلام العربي إلا بصفة استثنائية . . . ومن ثَمَّ فإن جزءاً من السكان يتبنى الإسلام بسرعة، ويفوز بحكم تحوله إلى اعتناق الإسلام بالمواطنة التامة، وربما دون مكابدة قطيعة حقيقية؛ لأن الدين الجديد يقدِّم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية)[2].

وأيّاً كانت الأسباب الجانبية، فإن السبب الحقيقي والأساس يرجع إلى أمرين:

أولهما: صحة دين الإسلام، ونقاؤه، ووضوحه، وشموله، وموافقته للعقل والفطرة، وتصديقه لما بين يديه من الكتاب.

ثانيهما: الأوصاف الحميدة التي ذكرها الله في كتابه عن مؤمني أهل الكتاب، وخاصة النصارى، وهي:

١ - العلم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ ﴾.

٢ - العبادة: ﴿ وَرُهْبَانًا ﴾.

٣ - التواضع: ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

٤ - قبول الحق، ورقة الطباع: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ

(١) ص: ٣٧.

(٢) ص: ٣٨.

مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

٥ – العقل والشجاعة: ﴿ وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ [المائدة: ٨٤].

إن التغيير الهائل الذي أحدثه (الإسلام) في تاريخ البشرية، والقبول العام بين أمم، وأقوام، وأعراق، ولغات، وثقافات، متنوعة، تمتد من أطراف الصين شرقاً، إلى ضفاف الأطلسي غرباً، ومن تخوم أوربا شمالاً، إلى مجاهل إفريقيا جنوباً، خلال فترة زمنية، وجيزة نسبياً (مائة سنةٍ فقط) لَتَسْتَرعِي التفكير، وتلفت النظر، إلى السر الكامن وراء ذلك القبول، والامتداد التاريخي، والجغرافي.

إنه لا يمكن لقوةٍ مهيمنة، مهما بلغت سطوتها، أن تتمكن من استيعاب هذه الشعوب والأعراق، التي لا تمتُّ إلى العنصر العربي، ولا إلى الجزيرة العربية، بأدنى صلة، فضلاً عن أن تدمجها في عقيدتها، بهذه السهولة والرضا. ولكن الإسلام تمكن من هذه المعادلة الصعبة، وهو ما يشهد شهادةً ناصعة، زكية، بأنه دين الله الحق الذي لا يقبل ديناً سواه، وأنه الامتداد الطبيعي النقي لما جاء به أنبياء الله جميعاً: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وانتهاءً بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

يا أهل الكتاب! (٢٢)

شهادة الواقع

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فها هو ذا (الإسلام) - وعلى الرغم مما تعانيه كثير من دوله: من تخلف مادي، وحضاري، مقارنة بكثير من الدول غير الإسلامية - يتمتع بجاذبية وقبول في مختلف الأوساط العالمية. ورغم ما أُلصِق به من دعاوي زائفة، بسبب تصرفات بعض المنتسبين إليه، إلا أنه يظل: (الدين الأسرع انتشاراً في العالم). ألا يدعو ذلك للعجب؟

ففي الولايات المتحدة الأمريكية - حيث تتولى الآلة الإعلامية الضخمة تشويه الإسلام، وإلصاق تهمة الإرهاب به، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م - تفيد التقارير الإخبارية بأن: عشرين ألف أمريكي يعتنقون الإسلام سنوياً، وأن مائتي ألف أمريكي من أصول لاتينية قد دخلوا في الإسلام. وأن نزلاء السجون الأمريكية، يعتنقون الإسلام بأعداد مذهلة؛ ناهيك عمَّا يجري في بلدان أخرى، في أرجاء الكرة الأرضية.

إن هؤلاء البشر، من الرجال والنساء، من مختلف الأديان والبلدان والأعراق واللغات، لم يحملهم على اعتناق الإسلام حد سيفٍ، ولا إغراء ماديٌّ، ولا رغبة في الهجرة بغرض تحسين أوضاعهم المعيشية، كلا! بل هي حقيقة هذا الدين العظيمة،

ووضوحه، ومصداقيته، وموافقته للعقل والفطرة السوية.

إن المنخرطين في الإسلام من شهود العصر ينتمون إلى ثقافات متعددة، ويحمل بعضهم أعلى الرتب العلمية، والتخصصات التقنية. وقد وجدوا ضالتهم، وسكينة نفوسهم، في قبول الحق، والشهادة لله - تعالى - بالتوحيد، ولنبيه محمد ﷺ بالرسالة. ولم يشعروا أنهم تنكروا للقيم الصحيحة، ولا تنصلوا من المثل العليا، ولا وقفوا موقف العداء من الأنبياء السابقين، حاشا، وكلا! بل وجدوا أنفسهم في سياق متناغم مع الحقيقة الأزلية الأبدية: أن الله - تعالى - خلق الخلق لعبادته، وأرسل فيهم رسلاً، وأنزل معهم كتباً، يصدق بعضها بعضاً، حتى آلت النبوة إلى النبي الخاتم (محمد)، والكتاب الناسخ (القرآن) والدين العريق (الإسلام).

وما إن يتحول أحدهم إلى الإسلام، حتى ينشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويدخل في سعادة غامرة، لا تعبِّر عنها الكلمات. وحين ينطق بالشهادتين تغرورق عيناه بدموع الفرح والتأثر البالغ الذي يسمى (حلاوة الإيمان).

إن هذه التجارب الإنسانية - معشر أهل الكتاب - حَرِيَّة بالدرس والتدبر؛ فلكل واحد من هؤلاء المهتدين قصة مؤثرة، وحديث ذو شجون، يكشف عن اصطفاء الله لطائفة من البشر لتلقِّي نعمته، وقبول بشارته؛ فَلْتَكُونوا من هؤلاء.

يا أهل الكتاب! (٢٣)

الآية الخالدة

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فما بعث الله - تعالى - من نبي إلا وأعطاه من الآيات والخوارق، ما يحمل الناس على تصديقه؛ فنجَّى إبراهيم - عليه السلام - من النار، وقلب العصا لموسى - عليه السلام - حيةً تسعى، وأيَّد عيسى - عليه السلام - بإحياء الموتى، وإبراء المرضى. وكان نصيب محمد ﷺ كبيراً؛ فأجرى الله له العديد من الآيات الباهرات، مثل انشقاق القمر، والإسراء، والمعراج، وتسبيح الحصى، وتفجر الماء بين يديه.

إلا أن الآية العظمى، والحجة الخالدة، التي لا تزال قائمةً إلى يومنا هذا، القرآن العظيم، الذي أوحاه الله - تعالى - إليه، على مدى ثلاث وعشرين سنة، ولا يزال محفوظاً، بوعد الله، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، لم يطرأ عليه تحريف، ولا زيادة، ولا نقصان، خلافاً للعهدين (القديم والجديد) اللذين يُجمع اللاهوتيون على تعرُّضهما للتدخلات البشرية.

لقد ظل القرآن العظيم المؤثرَ الأوَّل في اعتناق كثير من البشر للإسلام؛ فبمجرد أن يُقبل إنسان جاد، باحث عن الحقيقة، على قراءة القرآن، وتدبر محتواه، فإنه يخرج بقناعة تامة، أنه من عند الله، ويتأثر به تأثراً بالغاً، ينقله إلى دين الإسلام.

وسر ذلك يرجع إلى عدة مزايا:

أولاً: أن القرآن تضمن أخباراً تاريخية صحيحة، دقيقة، عن الأمم السابقة ومواقفهم من أنبيائهم، لم تكن متاحةً للعرب الذين منهم محمد ﷺ ولا هي من ثقافتهم، كما قال الله – تعالى – له: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]. وقد جاءت موافقةً، من حيث الجملة لما ذكر في التوراة والإنجيل، مصوِّبةً لما وقع فيهما من تحريفات.

ثانياً: أن القرآن جاء بأخبار مستقبلية، لا يمكن أن تصدر إلا من عند الله؛ مما يتعلق بأحداث آخر الزمان، والقيامة، والجنة، والنار.

ثالثاً: أن القرآن جاء ليرفع الخلاف الناشب بين مختلف الفرقاء من بني إسرائيل؛ من اليهود والنصارى، حول قضايا أصلية، كدعاوى: البنوة، والحلول، والتجسد، وطبيعة المسيح، والتثليث، والصلب، بطريقة شافية، مقنعة. قال – تعالى –: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

رابعاً: أن القرآن جاء بعقيدة متينة شاملة متكاملة، تحصل بها طمأنينة القلب، وقناعة العقل، سالمةً من التناقض والفوضى والخرافة، لا تضاهيها، ولا تدانيها عقيدة، ولا فلسفة أخرى، قديمةً أو حديثة.

خامساً: أن القرآن جاء بشريعة عادلة، شاملة، من التنظيمات المدنية، والأحكام الجزائية، قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان وأمّة. وقد ظلت نحو

أربعة عشر قرناً تطبّق بشكل سلس، من أواسط آسيا، إلى ضفاف الأطلسي، ومن أواسط أوروبا، إلى عمق إفريقيا، حتى اجتاحتها الأنظمة العَلمانية بقوة السلاح.

سادساً: أن القرآن جاء بأخلاق كريمة، وقيم عليا، وتكافل اجتماعي، وترابط كترابط الجسد الواحد، يهذب الطباع الجافية، ويسمو بالمجتمعات البدائية.

سابعاً: أن القرآن تميز بلغته الواضحة، الراقية، وفصاحته، وبلاغته، وقوة تأثيره، وأساليبه المتنوعة التي أدهشت البلغاء، وأعجزت الفصحاء أن يأتوا بسورة من مثله. كما أن وَقْعَ تلاوته، وتناغم جُمَلِه، يؤثر في نفوس سامعيه.

ثامناً: أن القرآن تضمن صوراً من الإعجاز العلمي، موافقةً لحقائق المكتشفات الحديثة في الكون والإنسان، وهو ما أدهش المتخصصين ودعاهم لاعتناق الإسلام، كما حصل للعالم الفرنسي (موريس بوكاي) في كتابه (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم).

إننا - معشر أهل الكتاب - ندعو كل مخلص، باحث عن الحقيقة، أن يقرأ القرآن بإخلاص، وتجرد، ويتمعن في مضامينه، ومقاصده، ليكتشف الحقيقة كاملة.

يا أهل الكتاب! (٢٤)

حلول غير موفَّقة

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

يقف كثير من الناس أمام معضلة تعدُّد الأديان، وتنوُّع الشرائع، وقفةً حائرة؛ ذلك أنه يرى في بعض تعاليمها صواباً، ومناداةً بالقيم الكريمة، والأخلاق القويمة، وربما غض الطرف عن بقية عقائدها، وشرائعها، فيوقعه هذا الالتباس في تحرُّجٍ من اتخاذ موقف واضح، وخيار جَلِيٍّ. وربما بدا له أن الأوفق للخروج من هذا المأزق أحد الحلول التالية:

١ - تصويب جميع الأديان، وتسويغ جميع الممارسات؛ وقد سلك هذا المسلك غلاة الصوفية، فقال قائلهم:

لقد كنت قبل اليوم أُنْكِر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورة
فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ
وألواحُ توراةٍ وكعبةُ طائف
وإنجيلُ رهبان ومصحفُ قرآنِ

أديــن بديــن الحـــب أنــى توجَّهــتْ

ركائبـــه؛ فالحـــب دينـــي وإيمانـــي

وهذا مسلك لا يميز بين حق وباطل، وكفر وإيمان، ووثنية وعبودية؛ يجمع بين المتناقضات، ويسوي بين المختلفات؛ لا يمكن أن يقبل به عاقل يحترم عقله.

٢ - اصطناع دين ملفَّق من جميع الأديان، والوثنيات، والأيديولوجيات، حسب ما يشتهي، ويصطفي الشخص؛ ومن ثَمَّ تكثر النماذج، وتتسع صور الخلاف، باستصناع أديان جديدة من نتاج البشر، فيزداد الأمر سوءاً. وقد جرت ممارسات من هذا القبيل فيما يسمى بالأديان الحديثة.

٣ - تقريب الأديان القائمة بعضها من بعض، ومحاولة إبراز أوجه الاتفاق، وإقصاء أوجه الافتراق، والامتناع عن النقد والتقويم، والتوقف عن دعوة الآخرين لقبول الحق الذي يعتقده. وهذا المسلك قد شاع منذ نحو نصف قرن، حين أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني، المنعقد في الفترة من ١٩٦٢م إلى ١٩٦٥م تقريباً، الدعوة إلى (تقارب الأديان) و (زمالة الأديـان) وتلته مؤتمرات عديدة، ومحافل، ونـدوات، داعية إلى مبادئه، وشُيِّدَت لأجله (مجمَّعات المعابد)، وأقيمت (الصلوات المشتركة). وهـذا المسلك الأخير، وإن بدا لبعض الناس حلاً للعلاقة المتأزمة بين أتباع الديانات المختلفة، إلا إنه تضييع للحقيقة، وتلبيس يحول دون الوصول إلى الصواب.

والحل الوحيد: التنادي إلى (كلمةٍ سواء) تقوم على أسس قوية، ومقدمات معقولة، تتكون من العناصر التالية:

١ - العبودية التامة لله، بجميع صور العبادة.

٢ - عدم الشرك بالله - تعالى - بأي صورة من الصور.

٣ - ترك الغلو، وتقديس الأشخاص.

وهذه العناصر متوفرة في دين الإسلام، الذي بعث الله به نبيه الخاتم محمداً ﷺ، وأمره أن يخاطبكم بها خاصةً، يا أهل الكتاب، فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. كما أمره أن يعلنها للناس عامة، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فهلمُّوا، يا أهل الكتاب!، إلى كلمةٍ سواء، وآمنوا برسوله يؤتِكم الله أجركم مرتين. قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥١ - ٥٦].

والحمد لله رب العالمين

الفهرس